إساءة معاملة الأطفال

تلمُّس الأسباب والظروف

د. عبدالعزيز بن عبدالله الدخيّل

كتيب
المجلة العربية ٢
العدد الثاني - صفر ١٤١٨هـ / يونية ١٩٩٧م

إساءة معاملة الأطفال

تلمُّس الأسباب والظروف

د. عبدالعزيز بن عبدالله الدخيّل

المجلة العربية

ثقافية . اجتماعية . جامعة

تصدر في المملكة العربية السعودية

رئيس التحرير : حمد عبدالله القاضي
هاتف ٤٧٧٩٧٩٢

الرياض ـ طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) ـ شارع المنفلوطي

سنترال ٤٧٧٨٩٩٠ ـ فاكسملي: ٤٧٦٦٤٦٤ تلكس (عربي/لاتيني) ٤٠٠٥٨٨ SJ

ـ ص.ب ٥٩٧٣ الرياض ١١٤٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم



الكاتب في سطور:

□ د. عبدالعزيز بن عبدالله الدخيل

- مدير جامعة الملك فهد للبترول والمعادن وممثل المملكة في مجلس أمناء جامعة الخليج العربي الآن.
- حاصل على الدكتوراة من جامعة أريزونا الأمريكية عام ١٩٧٤م.
- عمل مديراً عاماً للشركة السعودية لنقل وتجارة المواشي في الفترة من ١٩٨١م إلى ١٩٨٦م.
- ثم رئيساً لمجلس أمناء جامعة الخليج العربي في الفترة من ١٩٩٣م إلى ١٩٩٦م.
- عضو مجلس إدارة شركة أرامكو منذ عام ١٩٩٦م.
- كان ضمن وفد المملكة في اجتماعات منظمات إقليمية ودولية عديدة.
- حصل على العديد من الدورات التدريبية في مجال إدارة شؤون الموظفين والمديرين والإدارة المالية وفي مجال علم النفس والصحة النفسية وامتياز الطب من جامعات أمريكا.
- له العديد من المقالات العلمية والكتب المتخصصة إلى جانب المحاضرات باللغتين العربية والإنجليزية.

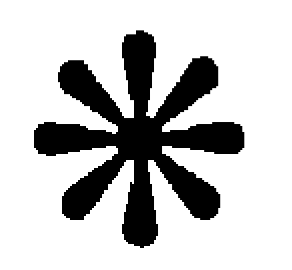


في البداية

بدأ هذا الكتيب رحلته منذ ما يزيد على ١٥ عاماً عندما طلب مني زميل عزيز التحدث للآباء والأمهات في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن عن ظاهرة إساءة معاملة الأطفال. فأعددت ورقة عن هذا الموضوع، وجدت، بعد أن سمعت الإطراء لها، أن أنشرها في جريدة «الجزيرة»، فنشرت في مقالين ظهرا في العام ١٤٠٣هـ وعندما دعتني وزارة التخطيط للمشاركة في ندوة الطفولة والتنمية عام ١٤٠٦هـ قدمت موجزاً لهذه الورقة، ثم ضمنتها ـ مرة ثالثة ـ كتابي «سلوك السلوك»، الذي نشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٩٠م، بعد إجراء بعض التعديلات، وقد كان هدفي من هذا التكرار في نشر هذه الورقة هو محاولة لفت النظر إلى ضرورة الاهتمام بهذه الظاهرة تحسساً ومعالجة من أجل منع تفاقمها في الوطن العربي على وجه العموم. واستمراراً لهذه المهمة عملت على توسيع الحديث عن هذه الظاهرة في شكل كتاب كنت أرغب في أن يصدر ضمن أحد الكتب الشهرية، وبدأت بالفعل العمل على ذلك. فراجعت مكتبات الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية وحصلت على كثير من المراجع حول الجوانب المختلفة للموضوع، كما أنني اتصلت ببعض العاملين في هذا المجال وزودوني بكل ما كتبوه حوله فتجمع لي عدد كبير من المراجع بدأت الاعتماد عليها في كتابة ذلك الكتاب. كما أنني سعيت إلى تجميع أخبار الصحف السيارة عن هذه الظاهرة في العالم العربي، وتحدثت إلى بعض من المختصين العرب، ففوجئت من هذه وتلك أن لهذه الظاهرة انتشاراً أكثر مما كنت أظن. وقد حثني هذا إلى الجد في مواصلة إعداد الكتاب. إلا أن أعمالي الإدارية كانت تقف حائلاً بيني وبين ذلك فأخذ العمل يتأخر كثيراً. وعندما اتصل بي الأستاذ حمد القاضي رئيس تحرير **المجلة العربية** ليخبرني عن اعتزام المجلة إصدار كتيبات مصاحبة لها قدرت أن من الأفضل نشر ما أنجزته حتى الآن تحقيقاً للهدف الذي تحدثت عنه، على أن أترك ما تبقى لجهد لاحق، إن شاء الله.

عبدالعزيز بن عبدالله الدخيل





مقدمة

لازال السلوك، باعتبـاره موضوعاً للدراسة والبحث، يكتنفـه الغموض بالرغم من محـاولات كثيـرة لتحديد عـوامله وإيضاح قواعـده وتلمس «ديناميكيـته». ويرجع السبب في ذلك كـما يبدو إلى كون أن السلوك عـملية مستـمرة لا يمكن تثبيتها أو تحديد بداية ونهاية أي جزء منها. ومن الممكن أن يكون في معايشتنا اليومية للسلوك تيسيراً لنا في تتبعـه بانتظام لولا أن المعرفة التي نستقيها من تلك المعايشة لا تتعدى الانطباعات التي قد تفـيدنا في حياتنا اليومية ولكنها لا تصلح أساساً لدراسة علمـية. بل إن هذه الانطباعات الشخصية أصـبحت حجر عثرة في وجـه التقدم العلمي لدراسة الـسلوك. فقد أخذ بعض المهـتمين بدراسة السلوك هذه الانطبـاعات وجعلوا يحـاولون إضفـاء الصفة الـعلمـية عليـها عن طريق تنميقـها بتعبيرات جـديدة جعلت الكثيرين يظنون أن شيئـاً جديداً قيل، بينما في الحقـيقة لا يتعدى ما قـيل ما كان متاصـلاً في أذهان العامة منذ زمن. كما أن المحاولات الحـديثة للخروج من طوق هذه الانطباعات جـوبهت بمقاومة شـديدة من أصحـابها لأن هذه المحـاولات تتـحدى الأسس الجـذرية التي بنيت عليها هذه الانطباعات وطبعتها العلمية الزائفة.

أحد الملامح الرئيسة للنظرة التقليدية الانطباعية للسلوك قبول التقسيم الدارج للسلوك إلى سويٍّ ومعـوجّ على أساس أن الاختلاف بينهـما جذري وأن لكل من هذين النوعين من السلوك عوامله الخـاصة به، كأن هذا التقـسيم يعكس الواقع أو حـتى يؤدي إلى فهـمـه. بل وتذهب هذه النظرة إلى أكـثـر من ذلك وتقتـرح تقسيمات إضافية للسلوك المعوجّ وكأن كل وحدة من هذه الأقسام متجانسة من حيث عناصرها وعـواملها، معطية لكل قسم مسـمى يشير إليها لاستـخدامه في تصنيف الناس.

وقد تبين الآن بما لا يدع مجالاً للشك أن عملية التقـسيم هذه ومسمياتها تؤدي

إلى آثار عكسية كثيرة، إلى جانب عدم جدواها في إيضاح المشكلات السلوكية وإيجاد الحلول لها. فعملية التقسيم مبنية على مبدأ أن كل وحدة من هذه الأقسام تشير إلى مرض نفسي يكون السلوك غير السوي أعراضاً لذلك المرض. ولكن هذا المبدأ لم يات نتيجة إثبات علمي أو استنتاج منطقي بل كان رد فعل تاريخي لوجهة نظر سابقة كانت تقترح حلولاً ذات خصائص غير إنسانية للمشكلات السلوكية. وإذا كان لهذا المبدأ نفعه من حيث دوره في رفع المعاملة الوحشية لنزلاء المصحّات النفسية فإنه اثبت عدم جدواه فيما بعد من حيث عدم قدرته على تطوير طرق فعّالة لمعالجة المشكلات السلوكية.

وما تقدم ذكره ينطبق على موضوع هذا الكتيب. فمعظم العاملين في هذا الحقل خصوصاً أولئك الذين ينتمون إلى علم النفس العلاجي والطب النفسي يعتمدون على وجهة النظر التقليدية المشار إليها سابقاً. ومن ثم تجدهم يتحدثون عن إساءة معاملة الأطفال وكأنها دلالة على مرض، كأن ذلك السلوك يختلف نوعياً عن كثير من التصرفات التي نشاهدها يومياً من آباء تجاه أطفالهم سواء في المضمون أو في العوامل المسببة أو في النتائج الحاصلة. ولهذا نجد أن تناول هذا الموضوع يعتريه حتى الآن الكثير من الفوضى والتضارب، ابتداءً من تعريف هذه الظاهرة وانتهاء بطرق علاجها.

ولقد دهشت بداية عندما وجدت لدى علماء النفس المحدثين إعراضاً عن الخوض في موضوع إساءة معاملة الأطفال وحسبته دلالة على عدم اهتمام وأخذت أتلمس الأسباب لذلك فظننت أن السبب قد يكون انشغالهم بما هو أهم، أو قد يكون عزوفاً عن الدخول في أمور لها طابع قانوني أكثر منه نفساني. ولكنني بعد تأمل في الأمر أيقنت أن ما لاحظته ليس إعراضاً بقدر ماهو اعتراض على الأسس التي يُناقش هذا الموضوع بموجبها، ورفض للتقسيمات التقليدية للسلوك المبنية على الأنموذج الطبي ونبذ للطريقة العقيمة التي تعالج بها هذه المشكلة. وهذا الرفض الذي تجده باوضح شكل وأجلى صورة عند السلوكيين من اتباع ب.ف سكينر B. F. Skinner مبني على أن التناول الصحيح لهذه المشكلة أو اي موضوع سلوكي آخر لا ياتي عن طريق الاستكانة إلى إطلاق الأسماء وتصنيف الناس بموجب هذه الأسماء وتلك النعوت بل ياتي عن طريق

تطوير أدوات تقنية فعالة تعيننا أولاً على ملاحظة السلوك محل الاهتمام ملاحظة منتظمة ودقيقة وتساعدنا ثانياً على تحليل العوامل المشكّلة لذلك السلوك والمسؤولة عن بقائه، بغض النظر عن الحكم الاجتماعي على ذلك السلوك سوياً أو معوجاً، وتمكننا ثالثاً من تطوير طرق ناجحة لتعديل السلوك إن لزم الأمر.

ومن ثم فلقد فضل علماء النفس هؤلاء عدم الدخول في هذا الموضوع لحين تطوير تلك الأدوات، وهذا يتطلب وقتاً ليس بالقصير ويستهلك جهداً ليس باليسير. وهم الآن في بداية مشوارهم نحو تحقيق هذا الهدف، فلقد تزايدت أعداد البحوث السلوكية في هذا الموضوع في الثمانينات من هذا القرن الميلادي، خصصت مثلاً مجلة «تعديل السلوك» (Behavior Modification) عدداً عن الموضوع حوى عدة مقالات لاشك أنها وغيرها ستكون الأساس لانطلاقات مثمرة في تعريف المشكلة وتحديد عواملها وتطوير طرق علاجها، كما ظهرت عدة كتب تقترب من هذا الموضوع مستخدمة أدوات تحليل سلوكية سبق أن طورت للتعامل مع مشكلات مماثلة.

وسنحاول في هذا الكتيب إعطاء صورة دقيقة لظاهرة الإساءة للأطفال مستخدمين المنظار السلوكي لتحديد خصائصها وتحليل مسبباتها. وسنترك لجهد لاحق عملية تتبع التأثيرات السلبية المتعددة لهذه الظاهرة وشرح طرق علاجها، قاصدين في ذلك إلى هدفين.

أولاً: إيجاد الوعي على مستوى قطاعات كبيرة من العناصر الفاعلة في المجتمعات العربية عن هذه الظهرة وتأثيراتها مستفيدين في ذلك من تجارب من سبقونا في مجال التعامل مع هذه المشكلة.

ثانياً: لفت أنظار المتخصصين إلى إسهامات الاتجاه السلوكي التحليلية والتقنية في هذا المجال، وإن كان هذا الهدف سيحتل مكانة ثانوية في هذا الكتيب نظراً للأهمية القصوى للهدف الأول الذي هو تحويل اهتمام الجميع، مؤسسات وجماعات وأفراداً، نحو هذه الظاهرة، وحشد الطاقات من أجل تفادي تفاقمها، والعمل على إيجاد الحلول العلاجية والقانونية والاجتماعية على مستوى الدولة والمجتمع والأفراد للحالات الظاهرة منها.

التاريخ والتعريف

لإساءة معاملة الأطفال تاريخ طويل، فهذه الظاهرة ليست مرتبطة بمكان معيّن ولا بوقت محدد. كما أنها اتخذت ومازالت تتخذ أشكالاً عدة ومظاهر مختلفة باختلاف الأسباب وتباين الظروف. كذلك فإنها قد تتخذ أشكالاً واضحة ظاهرة للعيان أو قد تتخذ أشكالاً يصعب كشفها إلا بعد طول تمحيص أو لفت نظر.

فمعظمنا يعرف ولاشك عن وأد البنات لدى بعض عرب الجاهلية وسمع عنها بعض القصص المثيرة للحزن والاشمئزاز معاً، وقرأ مقت القرآن الكريم لهذه العادة المتوحشة، كما سمع الكثير منا بالاستغلال الظالم والقاسي للأطفال في الغرب خصوصاً في أوائل عصر الثورة الصناعية كعمال في المصانع والمناجم. كذلك فإن هناك على مرّ العصور أوقاتاً كثيرة شوه فيها الأطفال عنوة لأسباب قد يرجع بعضها إلى عقائد خاطئة وقد يرجع آخرون ذلك إلى الفاقة وعوز الحاجة وقد تتخذ إعاقة الأطفال لاستدرار العطف عند السؤال. وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر من إساءة معاملة الأطفال وهو الإهمال المؤدّي إلى الموت أو الإعاقة أو التخلف فإننا سنجد أن لذلك انتشاراً أكثر وأعمّ مكاناً وزماناً. لذا فإن إساءة معاملة الأطفال ليست ظاهرة خاصة بزماننا هذا بل هي موجودة بشكل أو بآخر خلال معظم حقب التاريخ.

ولكن الإحساس بأهمية هذه الظاهرة وضرورة وضع حد لها لم يظهر في الغرب إلا في أوائل الستينات من هذا القرن الميلادي عندما ظهر مقال لمجموعة من الأطباء النفسيين أثار الكثير من الاهتمام خصوصاً في مختلف وسائل الإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية بهذه الظاهرة مما أدى إلى وضع قوانين بخصوص الإخبار عن هذه المشكلة عندما تحدث لكي تأخذ العدالة مجراها مع مرتكبيها. أما في العالم العربي المعاصر فإنه نادرٌ ما ترى من يتحدث عن هذا الموضوع كظاهرة متفاقمة، إلا أن الصحف السيارة بدأت تزخر بأخبار تنبئ

بتزايد مضطرد لأمثلتها المختلفة، بما في ذلك الاعتداء الجنسي!!

قضايا التعريف :

اي تعريف هو في حقيقته تصنيف، فهو وسيلة من خلالها يمكن تمييز نمط من الظواهر أو الأحداث عن غيرها لأنها تحتوي على خصائص مشتركة بينها لا تتوفر في غيرها. ويحوي التعريف القوي على خصيصتين هما:

أولهما، أنه يصف بدقة صنفاً من الظواهر يمكن تمييزه عن الأصناف الأخرى.

وثانيهما، أنه يقدم معايير يمكن بموجبها التقرير بدقة إن كانت ظاهرة ما تدخل ضمن الصنف المحدد بموجب هذا التعريف.

ويجابه من يريد وضع تعريف للإساءة أكثر من سؤال الأمر الذي يجعل وضع تعريف مقبول من الجميع، أو حتى من الأكثرية، شبه مستحيل. ومن هذه الأسئلة مايلي:

● ما مدى اتساع التعريف؟ وأي فئات يمكن أن تدخل في هذا المفهوم؟ فإذا كانت الإساءة البدنية والانفعالية والجنسية هي أكثر هذه الفئات شيوعاً وتدخل في الكثير من التعريفات الحالية فإن هناك فئات اقل استخداماً في هذه التعريفات، بالرغم من أهميتها كذلك، وهي الإهمال القانوني والأخلاقي والتعليمي.

● يعتمد التعريف عادة على السبب وراء الحاجة إليه والاستعمال الذي سيخضع له، وعندما تتضارب هذه التعريفات فكيف نُقرر أيها نختار؟

● هل يجب أن يتضمن التعريف توفر النية؟

● هل من المطلوب تطوير تعريفات مطلقة لهذه الظاهرة تتجاوز حدود التاريخ والثقافة ومجتمع ما، أم أن تعريف هذه الظاهرة يجب أن يأخذ في الاعتبار الوقت والمكان والظروف؟

● بالرغم من أن أكثر مصادر التعريف هي الممارسات والأنظمة الاجتماعية فإن الباحثين في نمو الطفل يحتاجون إلى معايير إجرائية لاستخدامها في أعمالهم

البحثية. فإلى أي حد تصلح التعريفات المستقاة من مصادر اجتماعية وقانونية في مجال الأبحاث؟

- كيف تتغير أو تتحول التعريفات لهذه الظاهرة مع أعمار الأطفال ومستوياتهم؟
- كيف يمكن للأبحاث في نمو الطفل أن تساعد في وضع تعريفات أكثر فائدة؟
- هل من المعقول أو المقبول أن يتغير تعريف هذه الظاهرة بحسب المستوى الاجتماعي أو التعليمي للمسيء؟

وعلى أي حال هناك ثلاثة اتجاهات عامة ثلاثة لتعريف الإساءة كثيراً ما يكون ذلك التعريف منطلقاً من مزيج منها. وهذه الاتجاهات هي:

- اتجاه يركز على الفعل، مثل اللكم والرفس والضرب والعض، مثل الإصابة الجسدية. وهذا الاتجاه في التعريف يمكّن من التدوين الرقمي للفعل أو نتيجته ولا يضطرنا إلى التخرص عن النية.
- اتجاه يركز على النية والقصد، وهذا الاتجاه يأخذ في الاعتبار السلوك المشاهد وحكم المشاهِد غير الموضوعي (Subjerctive) فيما يتعلق بنية الراعي للطفل نحو إيذائه.
- اتجاه يرتكز على الحكم الاجتماعي، فالإساءة حسب هذا التعريف ليست نمطاً معيناً من السلوك وإنما هي لقب محدد من المجتمع يطبق على أنماط من السلوك والإصابات نتيجة لحكم اجتماعي من قبل المشاهد. ويأخذ هذا الاتجاه في الاعتبار النية وما يسبق الفعل وشكل وحدة الفعل ومدى الإصابة ودور المسيء والضحية وموقعهما الاجتماعي Status.

ولكن مكونات التعريف تختلف في الحقيقة باختلاف الوقت والمجتمع والطبقة الاجتماعية متأثرة بتقلب الاهتمامات بين حقوق الطفل وحقوق الوالدين ومسؤوليات الدولة بخصوص التدخل في الحياة العائلية. وقد يظل هذا التذبذب يراوح مكانه إلى أمد طويل.

ولهذا بلغ اليأس من الوصول إلى تعريف موضوعي ومقبول لهذه الظاهرة

حداً جعل أحد العاملين في هذا الحقل يصل إلى القناعة بأن «التعريفات الاجتماعية والقانونية للإساءة للأطفال ستبقى في المستقبل كما هي الآن تحددها مقتضيات القيم الاجتماعية». بل إن باحثاً آخر قرر أننا لن نصل أبداً إلى تعريف مقبول أو يمكن قبوله لأن المصطلح ليس مصطلحاً علمياً أو طبياً بل هو مصطلح سياسي. فالإساءة هي أي تصرف يعتبر منحرفاً أو مضراً من قبل مجموعة لها من الحجم أو القوة السياسية ما يجعلها قادرة على تطبيق الالتزام بالتعريف.

والتضارب والتباين في تصور المفهوم يتجلى في جميع محاولات وضع التعريف لهذه الظاهرة. ففي بعض هذه المحاولات يتسع التعريف ليشمل الكثير من تصرفات الآباء ويصنفها كأمثلة لإساءة المعاملة، بينما تتوخى المحاولات الأخرى في تعريفها أن تدخل فقط فيه الحالات التي تكون فيها إساءة المعاملة واضحة لاشك فيها. ولكن العبرة التي يمكن أن نخرج بها من تتبع هذه المحاولات هي أن الفرق بين التعامل العادي والمستقيم من الأب نحو ابنه وإساءة المعاملة فرق كمّي وليس نوعياً، وأن هذين النمطين من التعامل يمثلان نقطتين على مستقيم واحد. وبهذا فإنه لن يوجد تعريف خارج عن محتوى اجتماعي معين. إلا أن هذا لا يعني أن المعلومات التي تبنى عليها هذه الأحكام الاجتماعية ليست موضوعية، ومهمة الباحث في مجالات نمو الأطفال هي في تحسين موضوعية هذه المعلومات وفي طرق التدخل واتخاذ القرارات بشأنها.

إذن يوجد الكثير من التعريفات المختلفة لظاهرة إساءة معاملة الأطفال. ولكن لم ينجح أي منها في تحديد عناصر هذه الظاهرة أو تعيين حدودها بشكل واضح وغير مضطرب. وكما تقدم فإن السبب يرجع حقيقة إلى كون أن إساءة معاملة الأطفال ليست شيئاً محدداً بطبيعته بل هي حكم اجتماعي يتغير حسب الظروف. فالمنزلة الاجتماعية للأبوين مثلاً قد تقرر إن كانت الإساءة قد حصلت أم لا. كما أن الاختلافات الحضارية قد تجعل الحكم على تصرف ما نحو طفل غير مؤكد، لأن تحديد أين تنتهي متطلبات التربية وأين تبدأ عناصر الإساءة

يختلف من مجتمع إلى آخر. وما يزيد المشكلة استفحالاً هو أن هناك اختلافاً حاداً حول مكوّنات ما يسمى بإساءة معاملة الأطفال، كما سبق أن ذكرنا. فهل ندخل في التعريف توفر النية أم لا؟ وهل ندخل في التعريف الإهمال غير المقصود على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمع ككل؟ هناك مثلاً من يرى في عدم قيام المدارس بدورها في تعليم الأطفال على أفضل وجه نوعاً من إساءة معاملة الأطفال. بل إن هناك من يرى في وجود مناهج أكاديمية غير متسقة ولا تتناسب ومستوى النمو لأطفال المدارس مثلاً مؤسفاً لإساءة معاملة الأطفال. كما أن هناك من يعتقد أن الأب المدخن يسيء إلى أطفاله بتدخينه. ويوجد أيضاً من يدخل ضمن هذا المفهوم إصابة الطفل بعاهة أو مرض أو موته نتيجة رفض أو إهمال الأبوين علاجه أو تحصينه ضد الأمراض. أي أن بعضهم قد يرى أن الحالات المكتشفة لإساءة معاملة الأطفال لا تمثل إلا جزءاً يسيراً من ظاهرة منتشرة معظمها مخفي أو مغطى بشكل أو بآخر وإنه لذلك فإن اي تعريف يجب أن يتضمن تلك الحالات المخفية ويبرزها للعيان.

ولكي يكون التعريف فاعلاً ومجدياً فإنه يلزم تحديد هدفه أو أهدافه. وفي رأيي فإن الهدف النهائي لتعريف الإساءة هو حماية الطفل منها، ومن ثم فإنه يجب أن يأخذ التعريف مصلحة الطفل في الاعتبار. ولهذا فإن تطوير تعريف له هذه الخصيصة المهمة يتطلب التركيز على التأثير السلبي على الطفل ونموه لأي تصرف من قبل راعيه نحوه. وهذا يعني انه سيكون هناك حكمان اجتماعيان عند تقرير حدوث الإساءة. الأول يتعلق بسلوك الأب أو الراعي والثاني يتعلق بتأثير ذلك السلوك على الطفل. ومن ثم فإن مهمة الأبحاث في مجال نمو الأطفال هي وصف وتوضيح أي من سلوك الأبوين، بالتفاعل مع أي من خصائص الطفل بالتحديد، يمكن أن تؤدي إلى نتائج مضرة للطفل.

وعلى أي حال يجب أن لا يكون ضمن أي من أهداف التعريف عقاب المسيء بل إصلاحه. فكثير من أنواع الإساءة للأطفال، كما سنرى، ناتج عن عدم قدرة الراعي على الوصول إلى طريقة فعالة في التفاعل الإيجابي بينه وبين الطفل

الضحية بسبب وجود عناصر غير عادية في محيط ذلك التفاعل تجعل من الصعب على الراعي تحقيق ذلك التفاعل على الوجه الأفضل ـ كان يكون الطفل مثلاً متخلفاً أو لديه مرض وراثي لم يكتشف، أو أن يكون الراعي قاصراً في مهارة التفاعل الإيجابي مع الآخرين. وإذا كان السبب كما ذكرنا فإن معالجة الإساءة تدخل ضمن مسؤولية المتخصص، ودور الجهات القانونية أو القضائية يقتصر على دعمه. والتعريف المبني على هذا الأساس يهدف في المقام الأول، كما ذكرنا، إلى منع حدوث الإساءة ولا ينحصر في العلاج فقط بعد حدوث الإساءة. ولهذا فقد وضع المتخصصون تصورات موضوعية للدلائل التي تسبق الإساءة أو لمؤشرات حدوثها وطوروا طرقاً فعالة في التعامل معها. وهم لذلك الأقدر على استخدام هذه الدلائل وهذه المؤشرات وهذه الطرق.

وفي العموم فإنه في محاولات تعريف إساءة معاملة الأطفال التي اطلعت عليها خلط بين هدفين كلاهما مهم ولكن أحدهما أهم من حيث الأولوية وسرعة الاهتمام. وهذا الخلط ناتج كما يبدو عن عدم التباين بينهما في أذهان العاملين في الحقل. أحد هذين الهدفين هو تحسين طرق تربية الطفل عموماً، بينما الهدف الآخر هو حماية الطفل من الأذى والإهمال. ومتى ما فصلنا هذين الهدفين عن بعضهم وركّزنا في بادئ الأمر على حماية الطفل من الأضرار وأعطينا تعريفاً واضحاً يبرز ذلك الهدف ويكون نقطة البداية نحو تحسين طرق تربية الطفل فإننا قد نستطيع الوصول إلى كلا الهدفين بطريقة تدريجية ولكن مؤكدة النتائج. إن الخلط بين الهدفين قد يؤخر تحقيق كليهما من حيث أن طرق تربية الطفل متاصلة في عادات وتقاليد اجتماعية لها جذور قوية وتتطلب زمناً وجهداً لتغييرها وتعديلها وجهداً ووقتاً أكثر لدراسة البدائل المفيدة وطرق إقناع الناس بها. ولكن حماية الطفل من المعاملة السيئة التي تصل أحياناً إلى درجة الوحشية قد تتطلب اهتماماً سريعاً وتدخلاً فورياً قبل أن يتعرض للمزيد من هذه المعاملة. لذا فإني أعتقد أن أي تعريف لإساءة المعاملة يجب أن يكون له ذلك الهدف الأولي ومن ثم فإنه يجب أن يحوي العناصر الآتية:

ـ العمد والإصرار على التصرف العنيف أو المهمل حتى ول كان مبرراً. ويتضح هذا العمد والإصرار من تكرار ذلك التصرف والمدة الزمنية التي تستغرقها كل حالة له.

ـ حدة ذلك التصرف ونوعه (ارتكاب لعمل أو إهمال لأداء واجب).

ـ ضرر جسمي للطفل ناتج عن هذا التصرف يتطلب علاجه جهداً أو وقتاً أو كلا الأمرين ربما أدي إلى إعاقة دائمة أو الى الوفاة.

ولوضع التعريف فإنه يلزم وضع قائمة بالتصرفات المسيئة التي تحوي هذه العناصر بحيث تستمد هذه القائمة من الملاحظات المنتظمة للحالات التي كان حدوث الإساءة فيها واضحاً اعتماداً على معايير عدة. ويمكن عندئذ تجريد السمات المشتركة لهذه التصرفات لتكون أساس هذا التعريف.

وتجدر الإشارة أنه بالنسبة للإهمال المسيء فإن التصرف الأبوي هنا عادة ما يكون مزمناً ولكن ليس حاداً بدرجة يلفت الأنظار ويجلب الاهتمام من قبل الآخرين. ولهذا فإن أي تعريف للإساءة لكي يكون مفيداً، يجب أن يركز كذلك على هذه الخصائص للإهمال المسيء. فخطر مثل هذا التصرف يساوي في مستواه خطر التصرف المؤذي.

العوامل المسببة

إذا كان الاختلاف في موضوع تعريف إساءة معاملة الأطفال حاداً فإن الاختلاف في تحديد العوامل المسببة لها هو أكثر حدة. إذ لازال يدور نقاش مستفيض عن أي العوامل أكثر أهمية من حيث التاثير على سلوك الإساءة. فيعطي بعض المتخصصين العوامل الاقتصادية دوراً أكبر في زيادة احتمالات حدوث هذه الظاهرة، بينما يرى بعضهم أن العوامل النفسية مهمّة أكثر من أي نوع آخر من العوامل. ويذهب آخرون إلى أن الطفل نفسه مسؤول عمّا يحدث لـه.

وعلى أي حـال فإن إسـاءة معـاملة الأطفـال ظاهرة بالغة الـتعـقيـد وترتبط بعـوامل كثـيرة ليس بالإمكان لأي منهـا منفرداً أن يفـسر حـدوث هذه الظاهرة بدرجة كـافية ومرضـية. ولكن التعـرف على العوامل المسبـبة حيوي لتـحديد أهداف العلاج وتطوير برامج الوقاية. ومن ثم فـإن معظم الأبحاث على الإساءة تعكف على تحديد مؤشـرات قرب أو احتمال حدوث الإساءة والمـؤثرات المسببة. وبالرغم من الفشـل في حصر عوامـل قليلة محددة تسـبب الإساءة، فإن فـهمنا لهذه المسبـبات قد ازداد بدرجة كـبيرة جعلت من الممكن تطوير تصـور للعوامل التي تسهم في حـدوث الإساءة، وإن كانت العمليـة التي بموجبها تتـفاعل هذه المسببات مع بعضها لتحدث الإساءة لازالت غامضة. وهذا ما حدا بأحد الباحثين بان يقـرر بأن العجب لـيس في حدوث هذه المشكلـة بل إن العجب هو في عـدم حدوثهـا، فالأسبـاب لحدوثها توجد فـي معظم العائلات ولكن حـدوثها مع ذلك قليل نسبياً.

تحدث إسـاءة المعاملة من قـبل (١) أبوين، أو أي راعٍ آخر، (٢) تجـاه طفل أو أطفال، (٣) تحدث ظروف معينة. وكل جانب في هذه الثلاثية له دور في حدوث هذه المشكلة أو الإعداد لهـا. وسيكون استـعراضي لاقتـراحات العوامل المسبـبة لتـصرف الإسـاءة على أساس فـعاليـتهـا في تحديد دور كل من هذه الجـوانب الثلاث في حدوث ذلك التصرف.

دور الأبوين:

بما أن الأبوين همـا السبب المـباشـر في حدوث التـصـرف السيء في معـاملة الأطفال فـإن الاهتمام بدورهما من قـبل العاملين في هذا الحقل كـان أكثر، إلا أن التـركـيـز في كـثيـر من هذه الأبـحاث أكثـر تركـيـزاً على الأم ذات الخلفـيـة الاجتماعـية / الاقتصادية المنخفضة، مع أن أكـثر من نصف حالات الإساءة التي أخـبـر عنهـا كـان الأب هو المسيء مع، أن إسـاءة المعـاملة تحـدث في جـمـيع المستويات الاجتماعية والاقتصاديـة.

وقد أعطيت آراء كثيرة في الأسباب التي تدفع الأبوين للتصرف بشكل مخالف للتوقعات منهما. ويمكن تقسيم الأسباب التي ترجع إلى الأبوين إلى ثلاثة أقسام.

١ــ السمات النفسية للأبوين أو أحدهما. هناك قصور واضح لدى الباحثين في تحديد عناصر هذه العوامل وطرق تأثيرها. فهم مثلاً يعترفون أن أي أب يمكن أن يكون مسيئاً لطفلة بعض الأحيان فإن تحديد السمات النفسية للأب المسيء لا يعني بالضرورة حصر احتمال الإساءة فيمن تتوفر فيه هذه السمات. ثم أنهم كذلك يقرّون أن من الصعب تعيين توفر هذه السمات في الأب أو الأم حتى بعد اكتشاف التصرف المسيء. من هذا يتضح أن دور هذه السمات في التنبؤ بحدوث الإساءة يكاد يكون معدوماً إلا ربما في الحالات التي تكون فيه هذه السمات موجودة بشكل قاطع مثل الاضطراب السلوكي الحاد. ويورد الباحثون على كلٍ عدة أمثلة لهذه السمات منها عدم القدرة على مواجهة الضغوط والنقص في المهارات الذهنية والقسوة والعدوانية والاعتماد المفرط على الآخرين للحصول على تاييدهم ورضاهم، والانعزالية.. الخ.

٢ــ الظروف الحياتية الحالية أو السابقة. مثل أن يكون عاطلاً عن العمل والحياة الزوجية المضطربة وإدمان الخمر وكونه ضحية الإساءة نفسها عندما كان طفلاً والعمر الصغير نسبياً للأم (أقل من الثلاثين سنة).. الخ. فمثل تلك العوامل تزيد من الضغط على راعي الطفل بحيث لا يستطيع تحمل أي ضغوط أخرى خصوصاً إن أتت من مصدر ضعيف مثل الطفل فينصب ردّ الفعل المتراكم عليه، والراعي الذي كان ضحية للإساءة في طفولته يعمد إلى الإساءة في التعامل مع طفله لأنه تعلم بالمحاكاة نمطاً من التصرف يجده فاعلاً، على المدى القصير، في السيطرة على السلوك المزعج من الطفل، وإن كان مكلفاً على المدى البعيد. أما صغر سن الأم كعامل في حدوث الإساءة فإنه يصبح كذلك نتيجة لقلة في الخبرة لدى الأم في التعامل مع الضغوط بل وفي تحاشيها قبل أن تحدث، وذلك نتيجة لضعف في القدرة على السيطرة على الغضب.

٣ــ الخصائص الثقافية للأبوين. أي: الخصائص التي تتعلق بتأثر الأب

بالمتطلبات الحضارية في مجتمعه وفهمه لتلك المتطلبات. وواضح أنه لكي يكون لتلك المتطلبات دور سيء في توجيه تصرف الأب نحو أطفاله يلزم إما أن تكون تلك المتطلبات غير معقولة وغير مناسبة أو أن فهم الأب لها مختل. من هذه الخصائص الثقافية نورد باختصار مايلي:

ـ النظر إلى الطفل على أساس أنه خلق فقط لإشباع الرغبة الانفعالية للوالدين بحيث يتوقعان منه أن يمدهما بالراحة والرعاية بدلاً من أن يمداه هما بذلك. وتحدث الإساءة عندما لا يتحقق ذلك الإشباع أو جزء كبير منه.

ـ توقعات غير معقولة من الأب نحو الطفل مبنية على جهل بمراحل نمو الطفل وخصائص كل مرحلة. فقد يتصرف الأب نحو الطفل كما يتصرف نحو شخص بالغ. فتجده يفسّر عدم الذهاب إلى الحمام مثلاً على أنه عصيان للأوامر، والبكاء على أساس أنه رفض من الطفل له، وهكذا.

ـ تطبيق التوقعات الاجتماعية في تربية الطفل بتشديد بالغ في وقت مبكّر جداً.

وتبين بعض الأبحاث أن هناك خمس مجالات واسعة للاختلال في سلوك الأبوين يمكن أن تتطور إلى مصادر للإساءة، وهي:

١ـ عمليات التفسير المختلة، بما في ذلك التوقعات غير المعقولة نحو الأطفال وتدني القدرة في حل المشكلات، والتفسير السلبي لسلوك الأطفال كإرجاع أخطاء الأطفال إلى عنادهم أو إلى نقص قدراتهم كآباء في حمل الأطفال على إطاعتهم.

٢ـ التدني في المهارات الأبوية بحيث لا يجد الأب من وسيلة للتحكم في سلوك طفله إلا عدد ضئيل من تلك المهارات كلها تقريباً تتسم بالعنف والسلبية ولا تأخذ في الاعتبار المتطلبات المختلفة لأحوال الطفل المتغيرة. كما تبين الملاحظات الدقيقة أن الآباء المسيئين يفتقرون إلى العديد من المهارات الأبوية مثل التفاعل المفيد مع الرضيع، كالتحدث إليه وتلمسه برفق، وضعف في الحساسية في التقاط الإشارات التي يقدمها الطفل مثل صيحات الألم، الخ.

٣ـ نقص في قدرة الأبوين على التحكم بالنزوات.

٤ـ ضعف في تمكن الأب من تحمل الضغوط يعرقل مهمته في القيام بدوره كاب على افضل وجه. أضف إلى هذا النقص في قدرته على حلّ المشكلات مما يهيئه لاقتراف الإساءة.

٥ـ التدني في مهارات الأبوين الاجتماعية بحيث تتسم علاقتهما مع الآخرين بالسلبية أو الانعزالية، وهذا بدوره يؤدي إما إلى تضخيم في الضغوط عليهما، أو إلى الافتقار إلى المساندة الاجتماعية التي يوفرها عادة الأصدقاء والتي كثيراً ما تخفف من حدة هذه الضغوط والمشاكل بمختلف أنواعها.

وميزة هذا الاتجاه في تتبع المسببات المحتملة للإساءة أنه يرسم الأهداف التي يمكن للمعالج السلوكي العمل نحو تحقيقها ووضع البرامج العلاجية لإنجازها. فالاختلال في العمليات التفسيرية والنقص في المهارات الأبوية التي تقدم ذكرهما للتو تنطوي على فشل من قبل الأبوين في فهم وتقدير مهارات وحاجيات كل مستوى من مستويات النمو، ومن ثم فإن اي برنامج علاجي يجب أن ياخذ في الاعتبار تاهيل الأبوين ليتخطيا هذا القصور.

ولكن هذا الاتجاه لا يولي اهتماماً لظروف موضوعية أخرى يمكن أن تزيد من احتمال حدوث الإساءة والإهمال مثل ارتفاع مستوى الضغوط المالية والاجتماعية والعائلية لدى العائلة التي تتكرر فيها الإساءة.

خصائص الطفل :

يبدو أن هناك خصائص للطفل تجعل حدوث الإساءة له أكثر احتمالاً تحت ظروف معينة. وقد يكون من المدهش أن يكون للطفل الضعيف دور في إثارة الإساءة وهو الضحية لها. ولكن بما أن فعالية العوامل المؤثرة في سلوك ما لا تتاثر بوجود القصد أو النية وإنما فقط بحدوث تلك العوامل بغض النظر عن كيف حدثت ومن أين أتت، فإن من الممكن أن يوفر الطفل عوامل إساءة معاملته بدون قصد وبدون إدراك لنتائج تصرفه. ثم إن بعض هذه العوامل لا تتعلق بتصرف الطفل وإنما بخصائصه الجسمية أو التكوينية. ومع أهمية دور الطفل

في حدوث الإساءة فإن الأبحاث حتى الآن لا تركز على هذا الدور وتكتفي بإعطاء معلومات وثائقية أو إحصائية بدلاً من معلومات مستمدة من الملاحظة المنتظمة، وتذكر الأبحاث أن الأطفال الأكثر عرضة للإساءة هم:

ـ الأطفال الصغار سناً، الذين تتراوح أعمارهم بين الولادة إلى السنة الخامسة، ولربما يعكس هذا سرعة تضرر الطفل الصغير بالعنف وهو ما يزيد من احتمال معرفة جهات أخرى بحدوث الإساءة. كما أنه ربما يعكس عدم قدرة الطفل على الاستجابة للتعليمات والتوقعات الاجتماعية لأنه لازال في حاجة إلى التمرن على اكتسابها.

ـ الطفل الذي هو نتيجة حمل غير مرغوب فيه لأسباب اقتصادية أو حياتية أو قانونية.

ـ الطفل المعوق أو الذي تنقصه بعض الصفات الجسمية. وتحدث الإساءة لمثل هذا الطفل لأنه بسبب تشوهه أو إعاقته يخالف التوقعات الأبوية ويزيد من أعباء الأبوين.

ـ الطفل المولود قبل موعده والذي يكون وزنه اقل من المعتاد كثيراً، وربما أتت الإساءة بسبب حاجته إلى رعاية أكثر وإلى بُعده عن أمه في الأيام الأولى من حياته بسبب ضرورة وجوده في المستشفى، إذ إن هذا البعد يخفف من الرابطة الوجدانية بين الأم وطفلها.

ـ أصغر الأطفال سناً من الذين يتعاقبون في الولادة بسرعة.

ـ الطفل الذي يكون جنسه مخالف للمامول من الأبوين، خصوصاً إن كانت أنثى وكان المامول ذكراً، كما يحدث في بعض المجتمعات الريفية.

وهناك أيضاً خصائص سلوكية للطفل يمكن أن يكون لها دور كبير في حدوث الإساءة توجد في بعض الأطفال:

■ الطفل الصعب: وهو الطفل كثير الصياح شديد الانفعال قليل النوم لسبب أو لغير سبب كما يظهر، لا تجدي معه أي من طرق التهدئة أو العناية أو الرعاية. ولعلّ من المؤلم الإشارة أن هذه التصرفات من الطفل عادة ما تكون نتيجة

تشجيع غير مقصود من الأبوين أو أحدهما. فالأم تلتقط الطفل عندما يبكي ويصرخ محاولة تهدئته، ولكنها بتصرفها هذا أيضاً تشجع سلوك الصراخ والبكاء حيث إن سلوك الالتقاط نتيجة للصراخ والبكاء هو بمثابة مكافاة لهذا السلوك يؤدي إلى تفاقمه. فتلجأ الأم إلى الضرب الذي يؤدي إلى عنف أكثر حدة نحو الطفل في محاولة يائسة لكسر حلقة الصراخ وتشجيعه، أو أنها تلجأ إلى تحاشي الطفل وبالتالي إهمال العناية به بسبب تفاقم سلوكه المزعج.

- الطفل البطيء: وهو الطفل المنعزل الذي لا يستجيب لما حوله كأنه في سبات عميق، كما أنه بطيء وغير متسق في حركاته.
- الطفل المشاكس: وهو الطفل المعاند الذي لا يستجيب للتعليمات ويتصرف بشراسة مع غيره بما في ذلك والديه.

ولأغراض الوقاية والعلاج فإن من المهم معرفة وفهم العلاقة بين سلوك الطفل والإساءة ويمكن القول، اعتماداً على الثوابت في العلاقة بين السلوك وبيئته التي حددتها الأبحاث العلمية، أن الطفل يتعلم من أبويه المسيئين تصرفات لها نفس خصائص تصرفاتهما من حيث التدني الواضح في المهارات الاجتماعية الذي يتمثل في مظاهر عدة مثل العزلة، والميل إلى السلوك العدواني، والصعوبة في تحمل الضغوط، إضافة إلى النقص المعرفي الحاد. إلى جانب هذا فإن الانحدار في التفاعل بين الطفل وأبويه يجعله قاصراً في كثير من المهارات. وبالفعل فإن المعلومات البحثية المتوفرة تدل على صدق هذه التوقعات، مما يؤكد دور الطفل في دفع الأبوين إلى السلوك القاسي المسيء معه.

العوامل البيئية :

يعطي الكثير من الباحثين العوامل البيئية خصوصاً الاجتماعية والاقتصادية منها أهمية كبيرة في حدوث إساءة معاملة الأطفال، بينما يرى آخرون أن هذه العوامل ليست كافية ولا ضرورية لحدوث تصرف الإساءة ولكنها قد تزيد في تاثير العوامل الأخرى، أو أن كثرة حالات الإساءة المُبلّغ عنها في العائلات ذات

الوضع الاجتماعي/ الاقتصادي المنخفض راجع إلى اتساع علاقاتها بمكاتب الخدمات الاجتماعية في بعض البلدان التي تحرص عادة على التبليغ عن الإساءة عندما تحدث أو تشك أنها تحدث. وبالرغم من ذلك فإن الغالبية العظمى من تلك العائلات لا تقوم بإساءة معاملة أطفالها. ثم إن الإساءة تحدث في جميع المستويات، كما سبق أن ذكرنا.

أسباب الإساءة

يمكن القول إن هذه العومل هي عوامل ضاغطة تهيء الشخص للانفجار والإساءة. من هذه العوامل البيئية نستعرض بإيجاز مايلي:

■ أسباب اقتصادية (مثل الفقر): ولهذه الأسباب دور في حدوث نوعين من الإساءة. فالضغط نتيجة المشقة والإرهاق قد يقلل من قدرة الأب أو الأم على تحمّل أي ضغوط. كما أن ضيق الحاجة تمنع الأبوين من توفير الغذاء الكامل والرعاية الصحية الضرورية للطفل. وإذا كان ذلك الطفل آخر حلقة في سلسلة من الأطفال توالدوا بتعاقب سريع فإن مشكلة الإهمال تتفاقهم مهما توفر حسن النية والسجية لدى الأبوين. كما أن المشكلة تزداد حدة إذا كان الأب عاطلاً عن العمل واضطرت العائلة إلى الاعتماد على الحسنات والهبات. وإذا أضيف لكل هذا ظروف سكنية صعبة فإن ذلك يزيد كثيراً من احتمالات حدوث الإساءة. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن الفقر وحده ليس سبباً كافياً أو ضرورياً لحدوث الإساءة. ولربما أن الزيادة الملحوظة في التصرف المسيء في العائلات الفقيرة عائد كما ذكرنا إلى كون أن هذه العائلات تعتمد كثيراً على مكاتب الخدمات الاجتماعية في بعض المجتمعات ومن ثم فإن أي حدث يشتبه في دلالته على الإساءة يخبر عنه ويدخل في الإحصاءات.

■ أسباب عائلية: مُعظم العائلات التي تحدث فيها الإساءة هي تلك التي ليس لها جذور عائلية في بيئتها المباشرة، ومن ثم لا تتوفر المساندة الضرورية من عائلتي الزوجين، ولهذا فإنها لا تجد من يعينها على مواجهة الصعاب خصوصاً

إذا كانت تلك العائلة منعزلة اجتماعياً أو كانت كثيرة التنقل. وقد أدت التغييرات الاجتماعية السريعة التي حدثت في العقود الأخيرة إلى تفتيت العائلة الممتدة extended نتيجة لانتقال العديد من الناس من المناطق الريفية إلى المدن سعياً وراء الرزق والرغبة في الرخاء، مما قلل من فرص وجود المساندة. وإذا أضيف إلى هذا كون مجتمعاتنا العربية لم تقم بعد بتاسيس البدائل المجتمعية للعائلة الممتدة التي يمكن أن تقدم هذه المساندة، يتضح لنا أهمية هذا العامل كمؤشر للزيادة في احتمال حدوث الإساءة، خصوصاً وأن قطاعاً كبيراً من هذه المجتمعات يعاني من مشكلات اقتصادية مثل الفقر والبطالة.

■ التصورات الحضارية: يركز بعض العاملين في هذا الحقل على أهمية الآراء الحضارية لمجتمع ما نحو طرق تربية الأطفال. فالمجتمع الذي يرى في القسوة عنصراً ضرورياً في تربية الطفل سيبرر الإساءة إذا حدثت على أساس أن للأب أن يفعل ما يشاء لطفله في سبيل تربيته. ووجود هذه المبررات وذلك التسامح يعطي الضوء الأخضر للأب لاستخدام القسوة.

العوامل السلوكية :

كما أن هناك أسباباً أخرى للإساءة أشار إليها بعض الباحثين في تحليلاتهم لهذه الظاهرة تتعلق بالإساءة كسلوك مكتسب بالتعلم. ومن هذه الأسباب:

■ التعلم من الآخرين: هناك أدلة كثيرة تبين أن جزءاً كبيراً من السلوك يتم تعلمه من ملاحظة الآخرين القيام به. ومن هذه الأدلة بالنسبة لظاهرة الإساءة الإشارات الكثيرة التي تدل على أن الأب المسيء هو نفسه ضحية الإساءة في صغره، كما سبق أن بينّا، أو أنه شاهد الإساءة وهو طفل نحو أترابه أو إخوته. إلا أنه تجب الإشارة إلى أن العلاقة بين معاناة الإساءة أو مشاهدتها من ناحية، وارتكابها فيما بعد من ناحية أخرى ليست حتمية بل تعتمد على مسببات وعوامل أخرى، ولكن الملاحظ أن نسبة لا تقل عن ٣٠٪ من ضحايا الإساءة يصبحون آباء مسيئين. وهذه نسبة ليست بالضئيلة. كما تجب الإشارة إلى أن

تأثير الملاحظة لا ينحصر في مرحلة الطفولة بل أنه يمكن لأي من الأبوين أن يلتقط السلوك المسيء من الآخرين بعد أن يصبح أباً أو أماً. وأحد نتائج التعلم بالملاحظة في هذه الحالة هو افتقار الأب أو الأم للمهارات التي يحتاجها أي منهما للتفاعل الإيجابي مع الطفل.

■ التحكم بالغضب: يزيد الشعور بالإحباط من احتمال حدوث الغضب يؤدي إلى الزيادة في احتمال ارتكاب الإساءة. وباختصار فإنه يمكن القول بأن الإساءة قد تنشأ في الظروف التالية:

١ـ العدوان استجابة للإحباط من مصادر بيئية.

٢ـ الإحباط الناتج عن سلوك الطفل المزعج الذي تفاقم نتيجة للتأخر في معالجته، أو بسبب الافتقار إلى المهارات لضبط هذا السلوك المزعج بطريقة إيجابية، أو لكون الطفل نفسه متخلف في نموه.

٣ـ الإفراط في ردّ الفعل الانفعالي والفسيولوجي لسلوك الطفل المزعج.

٤ـ نقص في مهارات ضبط النفس.

■ السياق القسري: يحدث أحياناً أن يتصاعد الصراع بين الأبوين وطفلهما إلى حد الإساءة. ويحدث هذا التصاعد لأن أحد الأبوين أو كليهما يقدمان الثواب والعقاب بشكل اعتباطي ولا يتبعانهما السلوك المحسن والمسيء بالضرورة. وهذا التصرف العشوائي من قبل الأبوين يزيد من سلوك الطفل المزعج فيضطر الأبوان إلى الرضوخ لطلباته الملحة وتصرفاته السلبية كوسيلة لإيقافها، وهذا الرضوخ يضحي تشجيعاً لتلك الطلبات والتصرفات يجعلها بالتالي تتزايد، مما يوجد حلقة مفرغة تدفع الأبوين في الأخير إلى استخدام القسوة لضبط سلوك الطفل، وتزيد القسوة من احتمال إحداث الأذى والإساءة، أو إلى الابتعاد عن الطفل لمشاكسته وعدم تعاونه مع أبويه أو أي راعٍ آخر، فيحدث الإهمال. وإلى جانب التذبذب هذا في تاديب الأطفال فإن الآباء المسيئين يميلون إلى التدخل في تعديات هؤلاء الأطفال متأخرين جداً، مما يؤدي إلى زيادة حدوث هذه التعديات. وما يزيد المشكلة تفاقماً.

إن هذه الحلقة المفرغة التي تتسم بالعلاقة السلبية بين الأبوين وطفلهما تحول دون تطوير علاقة إيجابية بينهما مما يجعل الجو العائلي غير صالح لنمو الطفل. ومن ثم فإن الاهتمام في العلاج يجب ان ينصب ليس على منع أو علاج سلوك الإساءة في حدّ ذاته بل يجب أن يمتد لتعليم الأبوين تطوير التفاعل الإيجابي مع أطفالهما.

تحليل المسببات:

إن العوامل التي تقدم ذكرها ليست في العادة السبب المباشر لحدوث الإساءة ولكنها المحيط أو السبب الذي يجعل حدوث مثل هذا السلوك ممكناً أو محتملاً عند حدوث السبب المباشر الذي عادة ما يكوّن سلوك الطفل نفسه، كما سياتي ذكره. ولتحديد سبب الإساءة في حالة ما نحتاج إلى الملاحظة المنتظمة التي تأخذ في الاعتبار إلى جانب التفاعل العائلي المؤثرات الأخرى التي تشكل كما قلنا المحيط أو السبب المهيء لسلوك الإساءة. ولا يتسع المجال هنا لذكر طرق الملاحظة هذه وأسسها ولكن يمكننا القول بفعاليتها في تحديد عناصر هذه المؤثرات. إلا أن تطبيق طرق الملاحظة يكتنفه الكثير من الصعوبات لما تتطلبه الملاحظة المنتظمة من الوقت والجهد، كما أن تدريب أبوين غير متعلمين على الملاحظة والتدوين هو من المستحيلات.

إن السلوك ياتي معظمه عن طريق الاكتساب والتعلم. واكتساب السلوك ياتي عن طريق التفاعل مع البيئة المباشرة لذلك السلوك. وكل حادثة سلوكية تتكون من سلسلة متعاقبة مكونة من ثلاثة عناصر هي المثير والسلوك ونتائج السلوك. ويكتسب المثير خاصية التحكم بالسلوك عندما يصبح مؤشراً على ماهية نتائج ذلك السلوك إذا صدر. فإذا صدر السلوك في حضور مثير معين وكانت النتيجة إيجابية فإن الاحتمال أكبر أنه في المستقبل عندما يظهر ذلك المثير أو ما يشابهه أن يحدث السلوك نفسه أو ما يقاربه. فنتائج السلوك تقوّي احتمال حدوثه عند وجود المثير إن كانت تلك النتائج إيجابية ولكنها تُضعف

ذلك الاحتمال عندما تكون سلبية.

وإذا كانت هنا نتائج إيجابية متوقعة لسلوك ما ولم تحدث فإن ذلك قد يثير الإحباط لدى صاحب السلوك، هذا إلى جانب أن غياب النتائج لذلك السلوك يؤدي إلى إضعاف احتمال حدوثه. وهذا الشعور بالإحباط قد يهيء صاحبه إلى التصرف بعنف تجاه أي شيء «يفسر» على أنه السبب المحبط، حتى ولو أن ارتباط ذلك الشيء بالموضوع لا يتعدى وجوده في المكان نفسه عند حدوث عملية الإحباط. وإذا كان ذلك الشيء لا يستطيع صدّ العنف ولا المقاومة فإن احتمال التصرف بعنف نحوه من قبل الشاعر بالإحباط سيزداد لأن هذا التصرف لن يعقبه نتائج سلبية تُضعف من احتمال حدوثه.

ساشرح ما قلته عن الإحباط بمثال من مجموعة تجارب أجريت على الحيوان لعلها تعطي صورة أوضح لما ذكرته. وقد كانت هذه التجارب تجرى على حمامتين وضعتا كلاهما في صندوق واحد. ودرّبت الحمامة الأولى على نقر مفتاح دائري يمكن تغيير لون الضوء الساطع من خلاله من قبل المجرّب، بينما ربطت الحمامة الأخرى في الجانب المقابل من الصندوق بحيث لا تستطيع حراكاً، وبين الاثنتين مسافة تبلغ متراً أو اقل قليلاً. وعندما يكون لون المفتاح أخضر مثلاً يمكن للحمامة الأولى، التي جُوّعت بعض الشيء، أن تحصل على بعض الأكل إذا قامت بنقر المفتاح حسب الطريقة التي دُرّبت عليها. وإذا غُير اللون الأخضر هذا إلى لون آخر ـ اصفر مثلاً ـ فإن الحمامة هذه لا تحصل على الأكل مهما جدّت في نقر ذلك المفتاح. بعد استمرار التجربة على هذا المنوال لفترة ليست بالطويلة أخذت الحمامة الأولى تجدُّ في نقر المفتاح عندما يكون لونه أخضر. ولكن عندما يكون لون المفتاح أصفر فإن الحمامة الأولى تذهب إلى الحمامة الثانية وتهاجمها بعنف. ولقد بلغ الهجوم من العنف درجة اضطر معها المجرّب في تجربة شاهدتها إلى التدخل لحماية الحمامة الثانية. وعندما بدأ المجرب في تجارب أخرى مماثلة بعقاب الحمامة الأولى كل مرة تتجه إلى الاعتداء على الحمامة الثانية خفت حدة السلوك العدواني وقلّ تكراره.

والشعور بالإحباط هو مفهوم يُستخدم هنا لشرح الاستجابات الانفعالية التي تصاحب أي حدث سلبي. والسلوك العدواني الذي قد يُصاحب هذه الانفعالات ليس تطوراً حتمياً لهذه الانفعالات لأن هناك انواعاً أخرى من السلوك قد تُصاحب هذه الانفعالات مثل العزلة والإدمان وما إلى ذلك. كما أن هذه الانفعالات ليست المحرّك لذلك السلوك العدواني وإنما مُسهلة لحدوثه. فالسلوك العدواني في هذه الحالة كاي سلوك آخر، مُكتسب بالتعلم من حيث تركيبه ومن حيث توقيت حدوثه. ويُكتسب السلوك العدواني ويزداد تكراره لأن فيه ـ ولو في بعض الأحيان ـ نتائج مفيدة لصاحب ذلك السلوك مثل الحصول على حاجيات مادية (الأكل) أو تغيير الأنظمة لتتفق مع رغبات المعتدي أو السيطرة على الآخرين وتسخيرهم لخدمته أو إنهاء أي تحدّ له أو إزاحة أي عارض مادي يمنعه أو يؤخره من الحصول على ما يرغب، أو إيقاف أي حدث سلبي يسبب له الإزعاج أو التقليل من تاثيره، أو الابتعاد عنه.. الخ.

وهكذا نرى أن السلوك العدواني كاي سلوك آخر يعتمد في حدوثه على النتائج الإيجابية له. كما أن النتائج السلبية تؤدي إلى إضعافه وإيقافه.

ما تقدم شرحه ينطبق على سلوك الإساءة إلى الطفل كاي سلوك عدواني آخر. فالشعور بالإحباط ياتي لعدة أسباب منها عدم توفّر النتائج الإيجابية لشحّها أو لعدم توفر الطرق التي تؤدي إليها بسهولة نسبية لنقص في مهارات الشخص أو نتيجة لوضعه الاجتماعي أو الاقتصادي. فقد يبذل شخص ما جهداً ووقتاً كثيراً للحصول على مردود إيجابي عادة ما يتمكن غيره من الحصول على مثله بمجهود اقل كثيراً. وقد تجد الأم نفسها تحاول جهدها تهدئة طفل من أطفالها كثير الصياح حادّ الاحتجاجات ولكنها لا تستطيع أن تحقق النتيجة المرجوة. وقد يشتبك الزوجان في عراك مستمر بحيث تنعدم الإيجابيات في علاقاتهما مع بعضهما.. الخ.

إن مصادر الإحباط كثيرة، وهي كلها تتفق في ماهية واحدة وهي شح أو ندرة في النتائج الإيجابية المتوقعة لقطاع كبير من السلوك اليومي.

كان يمكن للشعور بالإحباط أن يُسهّل حدوث أنواع أخرى من السلوك تقدّم ذكرها مثل الانطواء وإدمان الخمر والمخدرات والاكتئاب، بل وربما أدى ذلك إلى الإصرار على الإنجاز في العمل وإيجاد الحلول البنّاءة للمشكلات التي تخلق مسببات الإحباط. وبالفعل فإن هذا الشعور بالإحباط يؤدي إلى مثل هذه الأنواع من السلوك عندما تتوفر المساندة الإيجابية لتلك الأنواع من السلوك بدليل أنه ليس كل الذين يجابهون هذه المشكلات يتجهون إلى الإساءة المنتظمة لأطفالهم.

ولكن إذا لم يكن هناك في جعبة الأب أو الأم من بدائل إلا السلوك العدواني، ولم يكن هناك من مساندة إيجابية - حتى ولو كانت عفوية - إلا لذلك النوع من السلوك، فإن من الواضح أن الظروف البيئية الدقيقة (النتائج المباشرة للسلوك) ستؤدي إلى زيادة احتمال حدوث وتكرار تصرف الإساءة إلى الطفل. كذلك فإن الآباء مرتكبي الإساءة عادة ما تنقصهم المهارات الكفيلة بتمكينهم من خلق بدائل مفيدة وحلول بنّاءة عندما يجابهون مشكلات من ذلك القبيل. هذا إلى جانب أنهم قد مرّوا خلال حياتهم بتجارب كان السلوك العدواني هو الأبرز، فقد كانوا مثلاً هم أنفسهم ضحية الإساءة، كما ذكرنا آنفاً، كما أنهم عُلموا على الحصول على نتائج إيجابية عن طريق السلوك العدواني كالإجرام، أو أن العادات الاجتماعية تعد بمثل هذه النتائج الإيجابية للسلوك العدواني. كما أن استكانة الطفل وسرعة امتثاله للتصرفات العدوانية الأبوية لها فعل وفعالية النتائج الإيجابية، ومن ثم فإنها تشجع عفوياً السلوك العدواني من أبويه نحوه. وإذا لم يكن هناك ما يوقف السلوك العدواني نحو الطفل فإن إساءة المعاملة ستستمر وتتفاقم.

أما بالنسبة للإهمال فإنه يحدث عندما لا تكون هناك نتائج إيجابية مباشرة لسلوك الاهتمام بالطفل. وتنعدم هذه النتائج عندما لا يقدمها الطفل نفسه لعدم استجابته لرعاية والديه، أو اهتمام أي راع آخر به مثل أستاذ المدرسة. وقد تقدم ذكر أن أمهات الأطفال العصبيي السلوك عادة ما يُعرضن عن أطفالهن



ويلتمسن كل الوسائل للبعد عنهم. وهذا ولا شك له أثره العكسي على نمو الطفل وتطوره. وحتى عندما تعطي الدلائل من جهة أخرى غير الطفل على أنه لن يكون قادراً على الاستجابة للرعاية يحدث الإهمال. فعندما قسّم أحد علماء النفس مجموعة من أطفال إحدى مدارس الحضانة عشوائياً إلى قادرين على تعلم معاني الكلمات وبطيئين في تعلمها وأشعر مدرسو هؤلاء الأطفال بهذا التقسيم على أساس أنه تقسيم موضوعي لقدراتهم أتت النتائج حسب ذلك التقويم العشوائي فتميز معظم الذين أعطي مدرسوهم الانطباع بأنهم متميزون وضعف مستوى الذين أعطي مدرسوهم الانطباع بانهم ضعفاء في تعلم ذلك النشاط. وأرجع عالم النفس هذه النتيجة المدهشة إلى تاثر توقعات الأساتذة بهذا التقسيم العشوائي مما أدى بهم إلى زيادة الاهتمام بمن صنفوا اعتباطاً على انهم متميزون وإلى إهمال الاهتمام بالأطفال الذين وسمّوا ابتساراً بالبطء بدون قصد لقناعة عفوية منهم بعدم جدوى بذل الجهد معهم.

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى ظاهرة ربما تجدها في كل بيت وهي التشجيع غير المقصود لسلوك غير مرغوب فيه. وربما تكون هذه الظاهرة أكثر العوامل أهمية في حدوث الإساءة. فقيام الأبوين مثلاً بتشجيع أحد أطفالهما بعفوية على الصياح والصراخ، عندما يقومان بالتقاطه أو الاهتمام به وتهدئته كل مرة يفعل ذلك، يزيد من تكرار ذلك السلوك المزعج إلى مستوى أكثر من المعتاد، وعندما يتاصل ذلك السلوك وتزداد حدّته ويكثر تكراره يرجع الأبوان إلى استعمال القسوة لمحاولة إيقافه. وقد تنجح القسوة آنياً في ذلك وهذا يشجع الأب على استعمالها بتكرار أكثر في المستقبل لأن ذلك النجاح الآني يمثل نتيجة إيجابية لسلوك القسوة (أو الإساءة).

الخلاصة:

إذن فإن الذي يؤدي إلى حدوث الإساءة هو تراكم للأحداث السلبية مما تصل معه إلى نقطة يحدث فيها تصرف من قبل الشخص الذي يتعرض لهذا التراكم

يحاول فيه ذلك الشخص إيقاف هذه المنغصات أو الهروب منها. وإذا نجح هذا التصرف في إيقاف هذه المنغصات أو في كسر حدتها أو في الهروب منها فإن هذا النجاح هو بمثابة تشجيع لذلك التصرف فيتكرر ذلك السلوك تحت ظروف مماثلة. وقد يتخذ ذلك التصرف بداية أياً من الأشكال. فقد يكون في شكل تصرف عنيف نحو المصدر الأخير (أي السبب المباشر) لهذه المنغصات، أو قد يتخذ شكل الهروب من مصدر هذه المنغصات عندما يمكن ذلك. أو أن التصرف قد يأتي في هيئة جهد إبداعي متقن لإنهاء هذه المنغصات بشكل يضمن عدم تكرارها.

والتصرف البدائي في هذه الظروف يعتمد على تجارب الشخص السابقة، كما سبق أن ذكرنا. فإذا لم يكن في وسع الشخص إلا السلوك العدواني كمحاولة لوقف هذه المنغصات، لأن ذلك السلوك العدواني نجح في الماضي في إيقافها ولو مؤقتاً، فإن ذلك السلوك العدواني سيكون الأكثر احتمالاً من حيث الحدوث، خصوصاً إذا لم يؤدِ السلوك العدواني إلى أحداث سلبية معاكسة. وكذلك الحال مع أي سلوك آخر يكون الهدف منه إيقاف الأحداث السلبية أو التقليل من تأثيرها.

وباختصار فإن العوامل التي تؤدي إلى حدوث الإساءة أو الإهمال يمكن حصرها في ثلاثة أنواع هي على التوالي:

■ العوامل المهيئة: معظم ما أشرنا إليه في الجزء الأول يشير إلى الأسباب المهيئة لحدوث الإساءة. من هذه الأسباب السمات النفسية للأبوين وظروفهما الحياتية الحالية والسابقة وخصائصهما الثقافية وبعض خصائص الطفل نفسه والعوامل الاقتصادية والعزلة الاجتماعية والظروف العائلية مثل الحجم الكبير والتوافق بين الزوجين والسرعة في تعاقب ولادة الأطفال، والجهل بخصائص المراحل المختلفة لنمو الطفل، والتصورات الخاطئة عن أسباب تصرف الطفل وطريقة علاجه. وهذه الأسباب تزيد من احتمال حدوث الإساءة أو الإهمال بسبب تراكم تأثيراتها مع تأثيرات العوامل المباشرة.

■ العوامل المباشرة: هي أي حدث ياتي قبل السلوك مباشرة ويؤدي إلى حدوثه. ومن الصعب في حالة الإساءة والإهمال تعيين هذه الأسباب على وجه العموم ولكن يمكن الإشارة على أمثلة لها مثل الصراخ المتواصل للطفل وعدم انصياعه للأوامر ونشاطه الحركي الفائض وتخريبه المتكرر للمقتنيات المنزلية وتوسيخه لنفسه أو لما حوله.. الخ. وهذه الأسباب تثير سلوك الإساءة أو الإهمال عندما يؤدي هذا السلوك إلى نتائج مشجعة مثل كبح هذه الأحداث أو عندما يؤدي الإهمال إلى ابتعاد الأب المهمل عن مصدرها كما سنشرح فيمايلي:

■ العوامل المشجعة: هي أي أحداث تاتي بعد سلوك الإساءة مباشرة وتكون إيجابية من حيث تاثيرها التشجيعي على ذلك السلوك. ولا يلزم لهذه النتائج أن تحدث كل مرة يحدث فيها ذلك السلوك بل يكفي أن تاتي بعض المرات بعده ليكون ذلك الفعل التشجيعي والمقوي له. ومن هذه النتائج الإيجابية ما يقدمه أحد الأبوين أو أحد أفراد العائلة الآخرين أو أحد الأصدقاء للأب المسيء من تشجيع لسلوك القسوة مع الطفل كوسيلة لتاديبه، وقد تؤدي هذه القسوة إلى الإساءة إذا لم يكن هناك حدود واضحة لاستخدام القسوة. وينطوي تحت هذه النتائج أيضاً استكانة الطفل وسرعة امتثاله للقسوة بالتوقف عن السلوك المزعج أياً كان تطور القسوة إلى الإساءة، أما إذا كانت النتائج سلبية لسلوك الرعاية عندما لا يستجيب الطفل لمحاولات رعايته مثل تهدئته أو تعليمه فإن هذا يؤدي إلى ميل الأب أو أي راعٍ آخر إلى الابتعاد عنه وبالتالي إهماله. وكما قلنا سابقاً فإنه يكفي أن يكون هناك مؤشر إلى عدم قدرة الطفل على الاستجابة ليحدث الإهمال كما هو الحال عندما يكون الطفل معاقاً أو متخلفاً. وعلى العموم فإن أكثر هذه النتائج الإيجابية تشجيعاً لسلوك الإساءة هو التوقف الفوري للإزعاج من الطفل، وإن كان مؤقتاً، نتيجة للعقاب العنيف.

إقرأوا في الأعداد القادمة من:

كتيب
المجلة العربية

- **إبن حزم**
  رائد الدعوة إلى إنصاف المرأة .

  د. عزيزه المانع

- **أضرار الجوال**
  بين الواقع و الخيال .

  م.عبدالله بن حمد الكثيري

- **نحو رواية إسلامية**

  د. حلمي محمد القاعود

